المحور الثالث: تاريخ الأنثروبولوجيا

المحاضرة 03: التطبيقات الأنثروبولوجية قبل نشأة الأنثروبولوجيا

تمهيد:

إن المراحل الكبرى لتطور الفكر الاجتماعي بصفة عامة والتي تحمل في طياتها نشأة وتطور الفكر الأنثروبولوجي، يمكن تقسيمها حسب مراحلها التاريخية وما تضمنته من إسهامات وإنتاجات فكرية ومعرفية إلى:

1) الأنثروبولوجيا في الحضارات المائية:

سميت بالحضارات المائية لأنها شيدت على ضفاف الأنهار، وهي الحضارة البابلية والحضارة المصرية:

1-1) الحضارة المصرية القديمة: يجمع معظم علماء الاجتماع والأنثربولوجيا، على أن الرحلة التي قام بها المصريون القدامى عام **1493** قبل الميلاد إلى **بلاد بونت (الصومال حالياً)**بهدف التبادل التجاري تعد من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب، وكان الهدف منها التسويق لبضاعتهم التي شملت البخور والعطور، وقد نتج عنها اتصال المصريين القدامى بشعوب إفريقيا. وتأكيدا لما تبع هذه الرحلة من علاقات بين الشعبين فقد صورت النقوش في **معبد الدير البحري** استقبال ملك وملكة **بلاد بونت** لمبعوث مصري.

1-2) الحضارة البابلية: امتدت لأكثر من 3000 سنة قبل الميلاد، وتميزت بالتنظيم المحكم للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، والمعاملات التجارية وذلك في إطار القانون الذي وضعه **الملك حمورابي** (سادس ملوك بابل)، والمكون من 384 مادة، تم نشرها على أعمدة في الأسواق، وقد انتشر هذا القانون عبر العالم، ولازالت الكثير من مواده تدرس إلى اليوم في جامعات الحقوق والقانون، منها: " **المتهم بريء حتى تثبت إدانته**"

2) الأنثروبولوجيا عند اليونان والرومان:

2-1) الحضارة الإغريقية (اليونانيين القدامى): يعد المؤرخ والرحالة الإغريقي (اليوناني) **هيرودوتس** الذي عاش في **القرن الخامس قبل الميلاد** أول من صور عادات الشعوب وتقاليدهم، وطرح فكرة وجود تنوع وفوارق فيما بينها من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية. ولذلك يعتبره معظم مؤرخي الأنثربولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ، فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية، وتناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم، وكل ما يتصل بهم، وقد قارن بين بعض العادات الإغريقية والليبية، خاصة فيما يتعلق بطريقة اللباس والدروع والتماثيل. واستناداً إلى إسهاماته الكبيرة يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا أن منهج **هيرودوتس** في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية ينطوي على بعض أساسيات المنهج **الأثنوجرافي** المتعارف عليه في العصر الحاضر باسم **علم الشعوب**.

أما **أفلاطون (427 – 347 ق م)** فقد تناول طبيعة العلاقات الاجتماعية والجماعات العرقية، ووضع

تصورا مثاليا لتغيير مجتمع **أثينا**، وما يجب أن تكون عليه الحياة الاجتماعية، وهو ما تبلور في كتابه الشهير **الجمهورية**.

كما كان **أرسطو (384 – 322 ق م)** من أوائل الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته في التركيبات البيولوجية وتطورها في الحيوان، وقد نسب إليه أيضاً توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية.

وبصفة عامة فإن الدارس لأعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة مهمة ذات صلة بالفكر الأنثروبولوجي، وهي: أن اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، وتمخّض عنها ما يعرف باسم **الحضارة الهيلينية***.

وعلى الرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقض ما تتّجه إليه الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية (علم الاجتماع) من دراسة ما هو قائم لا ما يجب أن تكون عليه الأحوال الاجتماعية والثقافية، فإن فضل الفكر الفلسفي اليوناني لا يمكن التقليل من شأنه أبداً.

2-2) الحضارة الرومانية: امتد عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها، ولكنّهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية المجردة للحياة الإنسانية، بل وجهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس. ومع ذلك لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره إسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات. باستثناء أشعار **كاروس لوكرتيوس** التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة. فقد تناول موضوعات عدة عرضها في ستة أبواب رئيسة، ضمنّها أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وتكوين العالم، وقد خص الباب السادس لعرض فكرتي: **التطور والتقدم**، حيث تحدث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى .

وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين، أن **لوكرتيوس** استطاع أن يتصور مسار البشرية في عصور حجرية ثم برونزية ثم حديدية، بينما رأى بعضهم الآخر في فكره تطابق مع فكر **لويس مورجان (1818-1881)** أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. وذلك من حيث رؤيته للتقدم والانتقال من مرحلة إلى أخرى في إطار حدوث طفرات مادية، وإن كان مردها في النهاية إلى عمليات وابتكارات عقلية

* **الحضارة الهيلينية**: الحضارة اليونانية القديمة التي سادت وازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد.

وإذا استثنينا أشعار **لوكرتيوس** هذه وما احتوتها من أفكار تتعلّق بطبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوره، فإنّه من الصعوبة أن تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم، كما هو الحال عند الإغريقيين، على الرغم من أن الرومان اهتموا بالواقع، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية التقدم الاجتماعي والحركة الحضارية.

3) الأنثروبولوجيا في الحضارة الصينية:

يعتقد بعض المؤرخين سيما الأنثروبولوجيون منهم، أنّه على الرغم من اهتمام الصينيين القدامى بالحضارة الرومانية إلا أنهم لم يجدوا فيها ما ينافس حضارتهم، فقد كان الصينيون القدامى يشعرون بالأمن والهدوء داخل حدود بلادهم، وكانوا مكتفين ذاتياً من الناحية الاقتصادية والمعاشية، حتى أن تجارتهم الخارجية انحصرت فقط في تبادل السلع والمنافع، من دون أن يكون لها تأثيرات ثقافية عميقة على مجتمعهم، ومع ذلك لم يخل تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية التي تحتقر عادات الجماعات البربرية، وهذا الاتّجاه نابع من نظرة الصينيين العنصرية، إذ كانوا يعتقدون — شأنهم شأن الرومان — أنّهم أفضل الخلق، وأنّه لا وجود لأية حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنّهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء، ومن أجل ذلك أقاموا سور الصين العظيم حتى لا تدنس أرضهم بأقدام الآخرين.

وقد اهتم فلاسفة الصين بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية من خلال الاتجاهات الواقعية العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية ومعالجتها، لأن معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي في أي مجتمع تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، والذي يكشف عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، ويحدد بالتالي أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى.

خلاصة:

مما تقدم نستخلص بأن الأنثروبولوجيا هي من أقدم العلوم، كونها مرتبطة بدراسة السلوك البشري، ولذلك فقد ظهرت إسهامات كثيرة في الحقل الأنثروبولوجي في الحضارات القديمة، بدء بالحضارات المائية، إضافة إلى الحضارة الإغريقية والرومانية وكذا الحضارة الصينية، حيث كان روادها من الفلاسفة والرحالة والتجار والشعراء وغيرهم...، وبالرغم من كون هذه الإسهامات كانت تتسم بالسطحية وتعتمد على الخيال، إل أاننا لا يمكن أن ننكر أهميتها ودورها في ظهور الأنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته.

المراجع المعتمدة:

1) عيسى الشماس: **مدخل إلى علم الإنسان**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004

2) فهيم حسين: **قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان**، مطابع الرسالة، الكويت، 1986.

3) محمد الجوهري: **الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات علمية**، مؤسسة سجل العرب، 1980 . **4)**

Robert Deliége : **Une histoire de l'anthropologie : écoles ; auteurs ;théories,** édition Seuil, , France,2006